١٦٥٥٣

مجله	الازهر
تاریخ نشر	جمادی الاخر ١٣٦٠
شماره	الجزء السادس ـ المجلد الثانی عشر
شماره مسلسل	
محل نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	محمد مصطفی المراغی
تعداد صفحات	٢٢١ ـ ٢٢٧
موضوع	تفسیر سورة الحدید
سرفصلها	
کیفیت	
ملاحظات	

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

— ٥ —

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ :

الوزن : معرفة قدر الشيء . والمتعارف فى الوزن عند العامة ما يقدر بالقبّان ونحوه . وقوله تعالى : « وأقيموا الوزن بالقسط » أمر بمراعاة المعدلة فى جميع ما يتحراه الانسان من الأفعال والأقوال .

والقسط : النصيب بالعدل . والبؤس والبأس : الشدة والمكروه .

والغيب : يستعمل فى كل غائب عن الحواس وعما يغيب عن علم الانسان . ويقال للشيء غيب وغائب باعتبار الناس لا باعتباره سبحانه وتعالى ، فانه لا يغيب عنه شيء .

طلب الله سبحانه فى الآيات السابقة الإيمان به والإيمان برسله ، وبيّن أن ما يدعو اليه الرسل منزل من عنده أراد الله سبحانه به إخراج الناس من الظلمات الى النور رأفة منه ورحمة بهم ؛ وفى هذه الآيات بيّن الغرض من إرسال الرسل وإنزال الكتب والموازين ، وهو أن يقوم الناس بالعدل ، فيأخذ كل واحد حقه لاغير ويعطى حق غيره . وما اشتملت عليه الكتب السماوية جميعه ، سواء كان متعلقا بالعقائد أو بالأخلاق أو بنظام الأسر والمجتمع أو بقواعد التعامل بين الأفراد والجماعات ، عدل كله ، وحق كله ، وفى العمل به نصفة وقيام بالقسط ؛ فاذا نزهت الله سبحانه عما لا يليق به وآمنت به وبرسله ، فذلك عدل وإعطاء للحق ؛

وإذا تخلقت بالأخلاق الحقة الفاضلة ، فقد زكيت نفسك وأعطيتها حقها ، ويتبع ذلك أن تعامل الناس بالحسنى وتعطيهم حقهم ؛ وإذا عاملت الناس على وفق أحكام الله المنزلة ، فقد أعطيتهم حقهم وأخذت حقك وقمت بالقسط .

أرسل الله الرسل بالبينات والأدلة والمعجزات الدالة على نبوتهم ، وأنزل الكتب لتكون معهم يدعون الناس الى هديها ، وفى هذه الكتب مقاييس العدل وموازينه ، وهذه المقاييس والقواعد هى الميزان الذى أنزله الله سبحانه ؛ فليس الميزان شيئا آخر ماديا ، وليس شيئا غير ما فى الكتب .

أنزل الله الميزان ليعدل الناس ، كما أنزل الحديد ، أى خلقه وجعله ذا بأس وشدة ونكاية ، وأودع فيه منافع لا عداد لها ، ليستعمله الناس فيما خلق له ، وليستعمله الناس فى النكاية بأعداء الله الظالمين عباده ، وفى الانتصار للحق ، حتى يعلم الله من ينصره وينصر رسله وهو غائب لا يبصره . والله قوى عزيز . والقوى هو الذى لا يلحقه ضعف فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فلا يمسه نصب ولا تعب ، ولا يدركه قصور ولا عجز . والعزيز هو الذى لا يقهر ولا يغلب ولا يعارض .

فسرنا إنزال الحديد بخلقه وتهيئته ، وذلك مروى عن الحسن ؛ ونظيره قوله سبحانه : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » ؛ وتبعنا فى تفسير الميزان جمهورا من العلماء . وقد قال الغزالى رضى الله عنه : أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البُر والشعير والذهب والفضة ؟ أم تتوهم أنه الطيار والقبان ؟ ما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان ! واعلم يقينا أنه ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته .

ذكر الله سبحانه الكتاب والميزان والحديد ، وقرنها بعضها ببعض ؛ فالكتاب إشارة الى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف ؛ والميزان إشارة الى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام ؛ والحديد إشارة الى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا ؛ والله سبحانه وهو العليم الحكيم لا يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم ؛ وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه ؛ وغيرهم لا بد له من الوازع وهو سلطان الحاكم المشار اليه بالحديد ؛ ولذلك وجدت التعازير فى الاسلام ، ووجدت الحدود ؛ أما ترك الناس أحراراً من غير وازع فهو ضار بالمجتمع الانسانى ، وموجب للتراخى فى إقامة العدل واتباع القانون ؛ جرب هذا فى العصور المختلفة ، وقامت الشواهد الناطقة فى العصر الحديث عليه ، وعلم أن الأمم التى لم تحط أخلاقها بوازع انحدرت الى الدرك الأسفل ، وأضلتها الشهوات . وقد كانت درّة عمر سلكا قويا للنظام الاسلامى ، فلما رفعت ضعف ذلك الرباط .

وقد ذكر الله للحديد فائدتين : الأولى : أن فيه البأس والشدة والنكاية ، فآلات الحروب

جميعها منه أو تحتاج اليه ، وبخاصة إذا أريد بالحديد جنس المعادن ، كما عليه بعض المفسرين ؛ فمنه الرماح والسيوف والدروع قديما ، ومنه المدافع والقنابل والطائرات والدبابات والسيارات ، وسفن البحر على اختلاف أنواعها مما يسبح فوق الماء أو يغوص فيه ؛ وعلى الإجمال فقد كشف العصر الحديث عن ذلك البأس بما لا يدع مجالا للبحث .

والفائدة الثانية : أن فيه منافع للناس ، وذلك واضح ، فما من شىء من ضروريات الحياة أو كمالياتها إلا والحديد دخل فيه ؛ فهذه سفن الملاحة وطرق السكة الحديدية وما يتبعها من قاطرات وعربات ، وأدوات الحرث والطحن والغزل والنسيج ، وآلات البناء ومواده ، وسيارات الركوب ، وآلات الطباعة والطباخة والأكل ، وأدوات الزينة ؛ كل ذلك من الحديد ، أو يرجع اليه ، أو يحتاج اليه .

امتن الله سبحانه على خلقه بالحديد ، ولم يمتن فى هذا الموضع بما هو أغلى قيمة منه كالذهب والفضة ، لأنه أعم وجودا ، وأسهل تناولا ، وأكثر فائدة ؛ ومن نعمة الله سبحانه أن سهل كل ما تشتد اليه الحاجة وجعل وجوده أكثر . وأعظم الأشياء قيمة فى الحياة أكثرها وأسهلها تناولا ، وأحقر الأشياء قيمة فى الحياة أندرها وجودا وأغلاها ثمنا ؛ فما هى قيمة الجواهر الكريمة للحياة إذا قيست بالهواء والماء ، أو قيست بالبر والشعير ؟ وهكذا إذا نظرت الى الأطعمة وجدت ما هو لازم منها وضرورى ، أرخص مما هو غير لازم لزومه .

بعد أن امتن الله بالكتب والميزان والحديد ، بين أنه قوى عزيز مستغن عن خلقه ، وأنه لم يفعل ذلك إلا لإقامة العدل والدفاع عنه ؛ والدفاعُ عن العدل هو نصرة الله والرسول ؛ وبهذا البيان أعذر من لم ينصره ، وأشار الى أنه لا عذر له . وقد قال بعض الناس فى قوله سبحانه : « وليعلم الله من ينصره ورسله » : أى وليعلم حزبُ الله ومتبعوه من ينصر الله ورسله ، فرارا من توهم أنه حدث له علم بعد أن لم يكن ؛ والواقع أنه عالم من ينصره قبل أن ينصره ، ولا داعى الى هذا ، فان المعنى : ليعلم من ينصره علما يتعلق به الجزاء ، وذلك لا يكون إلا بعد وقوع النصرة .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون ﴾ :

نوح أول الرسل الى الأرض ؛ وإبراهيم قد انتسب اليه أكثر الأنبياء ، وعظم فى كل الأديان ، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ؛ وهو من ذرية نوح أيضا ؛ فالنبوة والكتاب لا تخرج عن ذريتهما ، ولذلك خصا بالذكر .

وقوله سبحانه : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » معناه أن بعض هذه الذرية اهتدى بكتب الأنبياء واتبعها ، والبعض فسق عن أمر ربه وضل السبيل ، فخرج على الدين جملة وكفر به ، أو بقى فيه وارتكب الإثم والعصيان ، وهؤلاء كثيرون .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ، وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ :

التقفية : جعل الشيء فى إثر الشيء على الاستمرار .

والآثار : جمع إثر بالكسر ، تقول : خرجت على إثره أى عقبه .

والرأفة والرحمة : اللين والشفقة .

والرهبانية : الخصال والأفعال المنسوبة الى الرهبان بفتح الراء وهو الخائف ، فعلان من رهب كخشيان من خشى .

والابتداع : ابتداء أمر لم يحتذ فيه على مثال . والبدعة منه ، وسيأتى بيانها .

ومعنى الآيات : أن الله سبحانه أرسل عقب نوح وإبراهيم على التتابع رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر الى عيسى فأعطاه كتابه المسمى بالإنجيل ، وجعل الله فى قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على عباده ، وجعلهم أيضا رحماء فيما بينهم ، كما كان المؤمنون فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم زاد الله فى ألطافه معهم حتى قويت دواعيهم الى الطاعة والتشدد فى العبادة ، فأحدثوا الرهبنة وابتدعوها ابتغاء رضوان الله ومغفرته ، ولم يكتبها الله سبحانه عليهم . أحدثوا هذه الرهبنة فرعاها الأولون المخلصون حق رعايتها ، ثم خلف من بعدهم خلف تظاهروا باتباعها ورعايتها ، ولكنهم تركوها باطنا ، وضعفت عندهم دواعى التشدد فى الطاعة ، فأخلوا بما عاهدوا الله عليه ونذروه ، وبذلك فسقوا وخرجوا على العهد ، فليس لهم حظ من الأجر ؛ وهؤلاء كثيرون . أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد وحافظوا عليه فقد وفاهم الله أجرهم .

ومعنى تلك الرهبانية التى ابتدعوها : تحمل الكلف الزائدة على ما كلفوا به ، فهم قد زهدوا فى الدنيا ونسكوا ، وحببت إليهم الخلوات واعتزال الخلق . لبسوا الخشن ، وأكلوا الغليظ من الطعام ، وتركوا النساء ، وتعبدوا فى الكهوف والغيران ، وخلصوا أنفسهم للعبادة متحملين ضروب المحنة والمشقة حبا فى طاعة الله .

هذه أوصاف أتباع عيسى كما وصفهم القرآن ، فما الذى بقى من أوصافهم وأوصاف أتباع محمد ؟ ندع هذا تجيب عليه الحوادث ، ويجيب عليه الواقع .

وقوله سبحانه : « ابتدعوها » إما صفة لرهبانية ، أو معمول لعامل محذوف تقديره : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ابتغاء رضوان الله . والاستثناء فى قوله : « إلا ابتغاء رضوان الله » منقطع ، ومعناه لكن ابتدعوها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ :

من الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بالأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ طلب إليهم أن يؤمنوا به ، ووعدوا نصيبين من الأجر : نصيب على الإيمان بالأنبياء قبله ، ونصيب على الإيمان به ؛ ووعدوا أيضا ذلك النور الذى يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة هاديا لهم الى الجنة ؛ ووعدوا المغفرة على ما فرط منهم من العصيان . ومن الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ طلب إليهم التقوى والاستمرار على الايمان ، ووعدوا نصيبين من الاجر أيضا : نصيب على إيمانهم به ، ونصيب على إيمانهم بالأنبياء قبله ، كما وعدوا النور والمغفرة .

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ :

اللام فى « لئلا يعلم » زائدة ، بدليل القراءة الثانية : ليعلم أو لكى يعلم .

كان بنو إسرائيل يقولون : إن الوحى والرسالة فيهم ، والشرع والكتب لهم وحدهم ، خصوا بهذا كله ، وموسى آخر الأنبياء لا تنسخ شريعته . فنفى الله سبحانه هذه المزاعم ، وبين أن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، ولا يملك أحد أن يخص به واحدا أو يخص به أمة ، فهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم أو بغيرهم ، ولا يملكون حصر الرسالة فيهم .

نفى الله هذه المزاعم حيث طلب إليهم أن يؤمنوا بمحمد ، وبين لهم أنهم لا ينالون النور والمغفرة إلا بالإيمان به ؛ أو حيث طلب من أمة محمد الاستمرار على الإيمان به ، وبين لهم أنهم لا ينالون المغفرة إلا بذلك . وعلى كلا الحالين فهناك فضل لمحمد صلى الله عليه وسلم ثابت من الله ؛ والإشعار بهذا الفضل إعلام لبنى إسرائيل وغيرهم بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وأنه صاحب الفضل العظيم .

لم يذم الله سبحانه أتباع عيسى على الابتداع ، لكنه ذمهم على عدم رعايته ، فهل الشأن فى الاسلام كهذا أو للبدعة شأن آخر ؟

عن أبى وائل عن عبد الله قال : « خط لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا طويلا وقال : هذا سبيل الله ، ثم خط لنا خطوطا أخرى عن يمينه وعن يساره وقال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرّقَ بكم عن سبيله » .

وعنه صلى الله عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد . أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : « إنما هما اثنتان : الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ، ألا وإياكم ومحدثات الامور فان شر الامور محدثاتها ؛ إن كل محدثة بدعة »

وقال مالك : « من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة . والمبتدع باحداثه جديدا أنزل نفسه منزلة الشارع » .

فهذا يدل على ذم البدعة فى الإسلام ؛ لكن تمييز البدعة عن غيرها قد يكون سهلا وقديدق ؛ إلا أنه يجب ألا يغيب عن الفكر هذه القاعدة ، وهى أن العبادات من الامور التى وضعها الله سبحانه لمصلحة عباده ، فلا يجوز أن يزاد فى العبادة شىء على ما ورد به الشرع ، فلا تستحدث عبادة جديدة ، ولا يزاد شىء فى كمية عبادة مشروعة أو فى كيفيتها وهيئتها ، ولا يلتزم وقت معين فى عبادة لم يرد فيها تعيين .

وكما تكون البدعة فى إحداث جديد ، تكون فى ترك شىء من الأشياء المباحة على سبيل التدين والتعبد ، كترك نوع من الأطعمة ونوع من اللباس أباحه الشارع لكنه تركه زهدا وقصد بذلك العبادة ؛ ففى هذه الحالة وضع نفسه منزلة الشارع فى اعتبار الترك عبادة ، والشارع لم يشرع ذلك إلا فيما عيّنه ، لكنه إذا ترك لا على نية العبادة لم يكن الترك بدعة . وأهم خصائص البدعة قصد التعبد والتدين فيما أحدث ، سواء أكان فعلا أم تركا .

ومادة بدع تدل على الاختراع على غير مثال سابق ؛ ومن ذلك قوله سبحانه : « بديع السموات والأرض » أى مخترعهما على غير مثال سابق متقدم ؛ وقوله سبحانه : « قل ما كنت بدعا من الرسل » معناه : ما كنت أول من جاء برسالة من عند الله . وبناء على هذا يقال : ابتدع فلان بدعة : أى اخترع طريقة لم يسبقه إليها سابق ؛ ثم خصت البدعة فى لسان الشرع بعمل لا يوجد دليل عليه من الشرع ، على أن يقصد بهذا العمل المبالغة فى التعبد ، وعلى أن يقصد به مضاهاة الأمور الشرعية ، ويلبس به على الناس ، ويوهم واضعه أن له أصلا فى الشريعة .

بناء على هذا لا تشمل البدعة شيئا مما أحدثه الناس لمصالحهم الدنيوية النافعة فى الزراعة والتجارة والأكل والملبس والحروب وطرق المواصلات وطرق نقل الاخبار ، ولا يكون استعمال شىء من هذا ابتداعا ، وإنما هو انتفاع بمباح ، وبزينة أخرجها الله لعباده .

وهناك أمور يعرض لها أن تكون بدعة وأن لا تكون بدعة ؛ مثلا : الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم وبيوم الهجرة وبالمحمل ، إذا فعلت هذه على أنها عبادة وتدين كانت بدعة بلا شبهة ، لأنه إحداث عبادة لم تكن ولم يؤذن فيها ؛ أما إذا فعلت على سبيل العادة ، وعلى أن الاحتفال بالهجرة وبمولده صلى الله عليه وسلم احتفال بذكريات عزيزة كانت سببا للخير وموجبة للشكر ، لتنبعث نفس المؤمن الى التمسك بالهدى وبالخلق الكريم ، لم تكن بدعة لأنه لم يقصد بها التدين ، ولم يرد إحداث شىء فى الدين . لكن إذا حفت هذه المحدثات التى ليست بدعا بما هو بدعة ، وبما هو مخالف للشريعة ، حرمت ، لما هو ملابس لها من البدع ، ولما هو ملابس لها من المعاصى . وكل معصية فشت لا تسمى بدعة ؛ فجميع ما يقع فى الأسواق والمجتمعات والمساجد ، وكل ما أطلق الناس لأنفسهم فيه العنان مما هو مخالف لقواعد الشريعة ، لا يسمى بدعة ، وإنما هى معاص ومحرمات .

وملاحظة ضوابط البدعة يساعد كثيرا على معرفة البدعة . وقد قلنا إن أهم المميزات والخواص أن يحدث الشىء على أنه دين يتعبد به ، وعلى أن يقصد فاعله التعبد والتدين والتقرب الى الله سبحانه به .

هناك أمور قد تظن بدعا وهى عبادة ؛ مثلا : تدوين الحديث ، وتدوين اللغة ، ودراسة علم الكلام ، والمنطق ، ودراسة جميع المعارف النافعة ، هذه اخترعت على غير مثال سابق مع أن المسلمين يعتقدون أنها عبادات ؛ وفى الحق أنها عبادات ؛ وسبب ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ، والفقه فى الدين موقوف بلا شك على الإحاطة باللغة ، والحرص على أن تكون سليمة موقوف على التدوين ، وحماية العقائد الاسلامية والحجاج للايمان بالله والرسل ، وأصله موجود فى الكتاب ، موقوف على دراسة الكلام والمنطق ؛ فلهذه الأشياء سند من قواعد الدين العامة ، وسند من المصالح المرسلة ؛ وخاصة البدعة ألا يكون لها سند .

وأكتفى الآن بهذا ، والوقت لا يتسع لأكثر منه .

وهذه السورة الكريمة التى يسر الله أن تكون موضع الأحاديث الدينية فى هذا الشهر المبارك ، يمكن أن يطلق عليها سورة الإيمان ، وسورة البر ؛ فقد صدرت بأقوى الدلائل على وجود الله وكماله ، وصيغت فيها الآيات الحاثة على البر والصدقات بأرفع الأساليب وأقواها تأثيرا على النفوس .